

طرائف من المعصر المملوكى :

الحركة العلمية

للأستاذ محمود رزق سليم

—•••••

جميل بنا أن نعتى بدراسة تاريخ مصر ، ونتعرف إلى نواحيه المختلفة ، لنشهد ما قدمه بنوها في أجيالهم المتعاقبة من جهود في مضمار العلم والأدب ، ولنعرف مكاننا من المدنية ، وموقفنا من الحضارة الفكرية . فإن مصر في عصورها الممتدة كانت تشترك باستمرار وبرغبة ذاتية في بناء المدنية والحضارة ، وتسمى دائبة لرفع لوائهما ونشر سلطانهما .

والعصر الذى نحن بصددده ، عصر فريد من عصور مصر ، وبخاصة في أنجازاته العلمية . وهو لذلك جدير بالبحث والتحقيق أكثر مما يبحر وعصر . بل لا أغلو إذا قلت إن النعوض لا يزال يكتنفه من نواح عدة . بل لا تزال الفكرة الركيزة في أذهان كثير من الأدباء عنه ، مشوهة ظالمة . ولذلك يتأبى بعضهم على البحث فيه وتمحيص نواحيه . مع أن أبناءه حملوا من أمانة العلم والأدب ما يشهد . ألقته المقادير على كواهلهم إلقاء ، فخلوا الأمانة وأدوا الرسالة ، صابرين في الجمل ، محسنين في الأداء .

نهضت بغداد من قبل ، برسالة العلم والأدب زهاء خمسة قرون وكانت — في الجلة — شمسا للبلاد الإسلامية شرقها وغربها تستضيء بهديتها ، وتسير على قبس منها . فلما دهمها التتار عام ٦٥٦ هـ ، وأزالوا خلافتها ، ونكسوا بأبنائها وعينوا بمؤلفاتها ، ضاعت بذلك نمار كثيرة من نمار هذه القرون الخمسة ، ووقفت بها رحي العلوم والآداب إلا لاما لاما . هنا لم نجد القاهرة بدامن الظهور في الميدان ، أكثر مما كانت ظاهرة ، وتقدمت لحل أمانة العلم والأدب برغبة وشجاعة . ولولا تقدمها لخبأ الزناد وكبأ الجواد ، وانقطعت سلسلة العلوم والآداب الإسلامية ، وتوارت عن الأنظار أمدا طويلا .

وقد هيا الله للقاهرة من الأسباب ما عاونها على بلوغ غايتها . فقد كانت حينئذ عاصمة لأقوى مملكة إسلامية ، ورزقت ملوكا أحسوا أن عليهم واجب حماية الدين والحرم على بلاد المسلمين . فدانوا عنها أعداءها ، ووطنوا لاهلها أكتافهم ، ورحبوا بالقادسين

منهم إلى مصر . وأغرى العلماء ماني مصر من خير وكرم وحسن وقادة وطيب إلقاء . فوفدوا إليها تباعدا من كل فج ، واتخذوا بمضهم دار مقام ، حتى أصبحت منتدى العرب ومحج المسلمين ، وقبلة علمائهم وطلاب العلم فيهم ، من كل بلد ومحلة .

وقد دعمت هذه الحياة بتجديد الخلافة الإسلامية منذ عصر الظاهر بيبرس . فأصبحت الخلافة — على علائها — ذات قوة أدبية لها تأثيرها الروحي في نشاط الحركة العلمية الإسلامية ، وعاونت مصر على أن تكون بيئة دينية سالحة جليلة القدر ، ينبت فيها وينقى إليها علماء الدين على اختلاف مذاهبهم .

ولم يدخر السلاطين وسما — كما نوهنا — في تبجيل العلماء وتمظيمهم أمام الخاصة والعامة ، حتى اطمانت نفوسهم ، ولم يلهمهم عن الإنتاج العلمى شيء من جوع أو خوف . وحرصت أجيالهم الناشئة على متابعة جهودهم العلمية لتظل لهم هذه المنزلة السامية لدى السلاطين والشعب .

ونذكر منهم على سبيل المثال : عز الدين بن عبد السلام وكان يدعى بسلطان العلماء ، وكان الظاهر بيبرس يهابه ويقدر رأيه . وتقى الدين بن دقيق العيد ، لأن السلطان لاجين يقبل بده . وعلاء الدين السيراى فرش له السلطان برفوق السجادة بيده .

وبإلى جانب هذا سرت في السلاطين والأمراء ومن إليهم ، روح عجيبة قوية للإبقاء أثرهم وتخليد ذكرهم . واتخذوا إنشاء المساجد الجامعة في مقدمة وسائل هذا الإبقاء والتخليد ، قرى إلى الله وزلقى ، ولتعيد فيها الناس وليتفقهوا في دينهم . وقرروا فيها الدروس ، وعينوا لكل درس شيخا ، ورسدوا لذلك الأوقاف الطائلة ، ليعيشوا لهذه المدارس بقاء طويلا ، وأجروا على الطلبة المنقطعين فيها لطلب العلم نفقات وأطعمة وأكسية ، وألحقوا بكل مدرسة دار كتب قيمة ، حسدوا إليها الآلاف من المؤلفات الثمينة .

ولم تكن هذه الجهود مقصورة على مدينة القاهرة وحدها . بل اشتهرت إلى جانبها مدن أخرى كثيرة كالاسكندرية وأسيوط وقوص ودمياط ومنفلوط وبوتيج وأخميم وأسوان وبلبيس ، هذه فضلا عن المدن الشامية والحلبية والحجازية .

وبلغ عدد مدارس القاهرة نحو خمسين ، فوق ما أنشأه الأيوبيون والفاطميون من قبل . ولا يزال كثير منها ماثلا للعيان في القاهرة حتى اليوم .

ثم قد يدفع به حظه إلى المتقن ثم الترقى في سلك الإمامة . وقد تسوق إليه المقادير في أعقاب ذلك سلطنة البلاد .

وقد عني السلاطين عناية بالغة بتنشئة ممالئهم تنشئة عسكرية سالحة ، كما عتوا بطامهم ومرايهم وصحتهم ، فتخرجوا — كما قال القرزى — « سادة يدبرون الممالك ، وقادة يجاهدون في سبيل الله ، وأهل سياسة يبالغون في إظهار الجليل » . وبتوالي الأيام تراخى السلاطين في بذل هذه العناية فاضطرب نظامهم شيئاً فشيئاً ، وكان لذلك أثره السيء في أخلاقهم ، فانقسموا ، شيعاً ، وتدخلوا في سياسة الدولة فأفسدوها ، وشغلوا بأطعامهم غير المشروعة وقعدوا عن الجهاد الصادق ، حتى صاروا كما قال القرزى « أرذل الناس وأدناهم وأخصهم قدراً ، وأشجعهم نفساً ، وأجهلهم بأمر الدنيا ، وأكثرهم إعراضاً عن الدين ، ما فهم إلا من هو أذن من قرد ، وألص من قارة ، وأفسد من ذئب » .

أما التعليم الشعبي فقد كان مقره المساجد وما شابهها مما أنشأه السلاطين والأمراء ومن لف لفهم — كما ذكرنا — ومما قيل في سبب إنشائها ، فهي بلا شك كانت الدعامة الأولى من دعائم هذا التعليم . وقد كانت بمثابة جامعات علمية عظيمة الشأن ، بها من الجامعات الحديثة خصائصها ومميزاتها ، وإن اختلفت عنها في الشكل والعرض . بل لعل التعليم بها كان ميسراً أكثر مما هو ميسر اليوم . وكان الطالب بها حراً يندمج في عداد من يشاء من الطلاب ويقعد أمام من يشاء من الأساتذة . ويضع جدول حصصه بنفسه ، ويظوف على كل مسجد إذا شاء ليقتطف منه أشهى ثمراته . ولا يتجمل في سبيل ذلك شيئاً من نفقات التعليم ، بل بالعكس كان يجداً البر والمعونة من كثير من أهل الفضل . فإذا أتم إحدى مراحل تعليمه بقرأة كتاب في مادة ، أو بحفظ طائفة من الأحاديث أو نحو ذلك ، منحه شيخه إجازة يشهد له فيها بتمام هذه المرحلة . وكان السلاطين يعنون عناية دقيقة باختيار الشيوخ المدرسين في مدارسهم ، ينتخبونهم من بين الأفاضل المشهود لهم بالعلم والفضل والذين لا ينون بجمع العلم ونشره غايهم الكبرى . وكان بعض هؤلاء الشيوخ يستمر في مدرسته طويلاً ، ويلازمها ، حتى لنستطيع القول — جملة — إن كل مدرسة كان بها منهم هيئة تدريس خاصة بها . لكل مادة من المواد المقررة بها أستاذ . ونذكر على سبيل المثال شيوخ الجامع المؤيدي وهم : شهاب الدين بن حجر السقلاني لفته الشافعية . ويحيى بن محمد بن أحمد البجائي المغربي

وفي مقدمة هذه المعاهد التعليمية مستشفى قلاوون . بناء عام ٦٨٢ هـ . وكان عبارة عن مدرسة للأطب كبرى . به قسم للحميات ، وقسم للرمم ، وقسم للجراحة ، وقسم للأمراض النسوية ، وغير ذلك . وجهاز بمن يهيمن عليه من الأطباء والموظفين والمرضين والصيادلة . كما زود بأدوات العلاج والصيديات . وأعدت به أسرة للمرضى ، وقسم للعلاج الخارجى وكل ذلك بالجمان . وهيئت به قاعة محاضرات تلقى بها دروس الطب ، كما زود بمخزاة كتب جليلة القدر .

هذه العوامل جميعها من شأنها أن توظف المهمة وتشجع الميزة ، وتهيئ السبيل إلى الاشتغال الجدى بالعلم . وقد انتهز العلماء هذه الفرصة النادرة ، وتلك الموارد الشبيهة التي أتيت لهم ، فعملوا منها وعلموا . وكان لهم مما أصاب العرب والمسلمين في تراهم الفكرى ، ببغداد وغيرها خير حافز على النهوض بتدوين العلوم تدويناً جديداً ، وبالإضافة إليه كلما وجدوا مزيداً ، حتى يعمروا اللغة والدين شيئاً مما فقداه في محنهما ، وحتى يبرئوا الذمة أمام الله والتاريخ ، ويبرهنوا أنهم حملوا العبء بقلب ثابت ونفس راضية . وقد كان لهذه الحركة العلمية مظاهر متعددة ، أهمها مظهران هما : الحركة التعليمية ، والحركة التأليفية .

أما الحركة التعليمية فقد انتعشت انتعاشاً محموداً . وكان بالبلاد نوعان من التعليم هما : التعليم المسكرى ، والتعليم الشعبي . أما المسكرى فقد كان مقصوراً على طائفة المالك ، محظوراً على أفراد الشعب . وهذه إحدى نقائصه في نظر المؤرخ الوطنى . وكانت طباق القلعة المقر الرسمى لجنود الدولة منذ عصر قلاوون يجلبون إليها من الأسواق صفاراً ، ويقسمون فرقاً حسب أجناسهم ويقم في كل طبقة جنس ، يشرف عليه عدد من الزمامين « الأغوات » ويقوم هؤلاء الصفار بتمريعات رياضية سهلة مناسبة ويعلمون الكتابة والقراءة ، ويلقون آيات من الذكر الحكيم ، ويمودون الصلاة وبعض الفروض الدينية . ويحفظون شيئاً من الأدعية ، وتحب إليهم الأخلاق الفاضلة والدفاع عن الدين والجهاد في سبيل الله . ثم إذا بلغوا الحلم يملكون تمرينات رياضية أشد قسوة ، ويمرنون على السباحة واستعمال السيف والرمح ، وقذف الأطواق وركوب الخيل والمبارزة ورمى النشاب ولعب الكرة . وفي هذه المرحلة تنضج مواهب الملوك وتبرز خصائصه وتبدو مهارته وشجاعته . فإذا عرف فضله وشهد بلاؤه ، صار في عداد المحاربين

وكان منهم «المتسبون» وهم الداعون الذين قيدت أسماؤهم لينالوا شيئاً من الأوقاف بصفة مستمرة . أما غيرهم فأخلط شتى من عبي العلم من الشعب

وأهم ما يوجه إلى هذا الضرب التلاميذ من النقد — إذا نظرنا إليه نظرة حديثة — أنه لم يكن سياسة للدولة مرسومة ، بل كان نتيجة جهود فردية ، وأنه لم يؤد إلى الشعب باعتباره حقاً من حقوقه ، بل باعتباره منحة له وتفضلاً عليه . وأن الأساتذة عنوا بنشر العلم فحسب ، ولم يتخذوه وسيلة إلى إيقاظ الشعب وتنبيهه إلى حقوقه وواجباته .

غير أنه — بلا شك — نظام قد أنجب . وأغلب بجنائنه من رجال الدين — وبلغ بعضهم مرتبة الأئمة المجتهدين — وقاموا بحركة تأليفية مباركة ، هي حلقة فريدة من حلقات العلوم والآداب كان لا بد لحياة العلم والأدب من وجودها .

أما هذه الحركة التأليفية فكانت المظهر الخالد للحركة العلمية . وشجعها السلاطين ودعوا العلماء أحياناً إلى التأليف برسم الخزانة الشريفة . فنهض المؤرخ أبو بكر بن أبيك ، ألف كتابه « كنز الدرر » للناسر بن قلاوون . والطبيب محمد القوصوي ألف للنوري كتاب « كمال الفرحة » في الطب . وعلماد الدين مومني بن محمد اليوسفي المصري ألف كتابه « كشف الكروب في معرفة الحروب » للسلاطين جفمق .

على أن التأليف لم يكن وفقاً على تشجيع السلاطين أو سواهم ، بل كان غاية من غايات العلماء . لذلك نشطوا في ميدانه نشاطاً هو مثار الدهشة والمعجب ، لبلوغه حداً من الإعجاز . وتعددت مؤلفات بعضهم حتى عدت بالآلاف ، وفي فنون شتى . وانسدت أحياناً حتى صارت موسوعات جامعة امتدت فيها آفاق العلم . وعنوا بعلوم الدين أولاً ، ثم التاريخ وفنون العربية ، ثم غيرها . وحظي تاريخ الأعلام والخطط بنصيب كبير من العناية . وهكذا ترى أن مؤلفاتهم لا غنية عنها للفقيه والمؤرخ واللغوي والأديب والمحدث والنحوي والبلاغي وغيرهم . وبعضها بعد فريداً في باب منقطع النظير .

وأهم ما يوجهه الناقد إليها أن بعضها رسائل صغيرة ، وأن منها ما يشوبه الجمع والنقل ويندر فيه الابتكار . وأن منها المتون وشروحها ومختصرات شروحها . غير أن هذه النقادات بسبيل الرد عليها وتعليلها . فسياق العصر كان يدعو إليها إسراراً إلى تدوين المفوظ ومجلة إلى تسجيله خذراً من أن تمسح به يد الزمان

لغة المالكية . وهز الدين عبد العزيز بن علي بن الفخر البغدادي افقه الحنابلة . وبدر الدين محمود الميناني للحديث . وشمس الدين محمد بن يحيى للقراءات . وشمس الدين محمد بن الديري لفقه الحنفية وشيخ للصوفية . وهكذا .

أما مواد التعليم فقد كان طبيعياً أن تكون العلوم الدينية في مقدمتها ، بدافع من رد الفعل الذي أحدثته حوادث اغتيال العلماء ومؤلفاتهم في بغداد وسواها من عواصم المسلمين . وبدافع ما أضرنا إليه من أن البيئة المصرية تحولت إلى حد ما بيئة دينية أقيمت عليها تيمات الذود عن الدين وعلومه وأهله . وبلغها علوم اللغة للحاجة الماسة إليها في درس العلوم الدينية وضبط شئون الدولة . وبلغها غيرها من المواد لأنها تكمل المتعلم وتؤهله لتركيز علمه . وكانت مواد التعليم هي الفقه بمذاهبه الأربعة ، وأصول الفقه ، والحديث والتفسير والقراءات والوعظ والكلام والتصوف ثم دروس النحو والصرف والأدب ، ثم الطب والفلك والهندسة والتاريخ والتقويم والرياضة .

وقبل أن يدرس الطالب هذه الدراسة ، يمر بأحد المكاتب المنشأة بجوار المساجد ، ليحفظ به القرآن الكريم ويتعلم مبادئ القراءة والكتابة .

ولم يكن لدور التعليم مناهج خاصة في موادها المقررة . وأغلب الظن أن منهج المادة كان رهناً برغبة أستاذها . فهو وحده يختار الكتاب الذي يقرؤه فيها لطلابه . ومهما يكن من شيء فقد سمعت كتب خاصة باتخاذها مناهج لموادها المقررة . نعرف ذلك إذا احلنا على تراجم الأعلام من علماء العصر ؛ لذلك نستطيع القول إن من بين الكتب التي أنجحت العناية إليها لدراستها ما يلي : التنبيه . المنهاج الأصلي للنوري . الشاطبيتان في القراءات . العمدة للحافظ النسفي في الأصول . والكافية لابن الحاجب في العربية . ومختصر القدوري في الفقه . وجمع الجوامع . والأربعمون حديثاً النووية . وتلخيص المفتاح في البلاغة ، والكفر في فقه الأحناف . والنار في الأصول . والنية ابن مالك في النحو . والملمحة . والمختار والنظومة كلاهما للنسفي في الفقه . ونظم قواعد الإعراب لابن الهائم . وإساغوجي في المنطق . وكتب الحديث الستة .

وقد امتلأت المساجد بطلاب العلم على اختلاف مذاهبهم ، واختلاف بلادهم ، ممن وفدوا على مصر يستظلون بظلالها ويستمدون رنداها وينهلون من مواردها . حتى ضاق بهم بعضها على رحبه ،